

## القرآن والبحر

إن لله تبارك وتعالى كتابين : الأول منهما مخلوق مبسوط أمام الأنظار وهو الكون ، والآخر منهما مُتَرَل من لدنه سبحانه وهو القرآن ، ونستطيع أن نقول : إن لله جل جلاله قرآنين ، القرآن الأول مشاهد منظور ، وهو ملكوت السموات والأرض ، والقرآن الثاني مقروء مسطور ، وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ؛ والكتاب الأول وهو الكون يعاون - بتأمله والتدبر في مشاهدته - على فهم ما نستطيع من معاني الكتاب الآخر وهو القرآن ، وبذلك تكون مشاهد الكون وسائل إيضاح أماننا ، تقودنا إلى عمق الصلة بهذا الهدى الإلهي الباقي الذي جعله الله «روحاً» للإنسانية على مدى مسيرتها الموصولة ؛ ولعل هذا هو بعض ما نفهم من قول الله عز شأنه : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (الشورى ٥٢ ، ٥٣)

ولا شك أن « البحر » بمفهومه العام الواسع مشهد جليل من مشاهد

الكون ، ومظهر كبير من مظاهر الطبيعة ، فالتأمل فيه جزء من المطالعة في كتاب الله الكوني الواسع ، والمطالعة في القرآن الكريم تفرض علينا حديثاً فسيحاً عن « البحر » ، فتصلنا به ، وتدفعنا إلى التدبر لشأنه .

وقد يحسن قبل أن نغضى في حديث القرآن عن البحر - أن نعرف المراد بكلمة « البحر » في اللغة والاصطلاح ، فكلمة « البحر » في الأصل يراد بها كل مكان واسع جامع للماء الكبير ، ويسمى العرب كل متوسع في شيء : بحراً . حتى قالوا عن الحصان الواسع الجرى : حصان بحر . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عن فرس سريع ركيه : « وجدته بحراً » . وقالوا عن الرجل الفقيه الواسع العلم : عالم بحر .

وقال بعض العلماء : البحر يقال - في الأصل للماء الملح دون العذب ، وقال آخرون : بل يطلق على كل منهما ، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي مَرَحَ الْبَحْرَيْنِ ، هَذَا عَذْبٌ قُرَاتٌ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » ( الفرقان ٥٣ ) ، أى هذا بحر عذب وضح العذوبة . وهذا بحر ملح شديد الملوحة . والظاهر أن البحر : هو الماء الكثير ، ملحاً كان أو عذباً ، ولكن غلب استعماله في الملح ، وقل استعماله في العذب .

والبحر جغرافياً - هو جزء من محيط ، يكون مسطحاً مائياً واسعاً يتصل بهذا المحيط ، كالبحر المتوسط ، والبحر الأحمر ، والبحر الأسود ، وبحر الشمال ...

ومن كلمة « البحر » استق العرب كلمة « البحرية » ، وهي كلمة كانت تطلق على جميع السفن التي تمتلكها الدولة لغرض الحرب أو التجارة ، وتطلق الآن على السفن المخصصة للقتال أو حماية الدول .

ونعود إلى حديث القرآن عن البحر ، فقد ورد ذكر « البحر » في عشرات من مواطن الكتاب الإلهي المجيد ، وقد تحدث هذا الكتاب الرباني عن البحر حديثاً عجباً ، فيه إثارة للعقل ، وإيقاظ للقلب ، وعبرة للنفس . وإيراد الدقائق من العلم المتعلق بالكون والسن الطبيعية ، وما أودع الله في ملكوته من عجائب وأسرار .

ولقد روى « تفسير المنار (١) » أنه حدث في أوائل القرن العشرين أن ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم وقعت في يد ربان إنجليزي يقود إحدى البواخر الكبيرة ، فقرأ في الترجمة آيتين في سورة يونس عن البحر تقولان :  
 ( هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ ، وَجَرَينَ بِهِمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحُوا بِهَا ، جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِنِّي أَمْرَجْتُكُمْ فَنَشِكُمُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . ( الآيات ٢٢ ، ٢٣ ) .

فأحس الربان بالروعة من بلاغة هذا الوصف القرآني الدقيق لطيفان البحر واصطخابه ، وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالبواخر والوارج العظمى في المحيط الهندي في فصل الصيف ، فأخذ يتسع كل الآيات القرآنية التي تتحدث عن البحر ، ثم سأل بعض المسلمين : هل ركب نبيكم محمد البحر وسافر فيه ؟ فقالوا له : إنه لم يرد عنه أنه سافر في البحر قط .

وهنا اعتقد ذلك الربان أن ما في القرآن من حديث وعلم لم يكن إلا بوحى من الله تعالى إلى هذا النبي العظيم !



ولعل أول ما ينبغي أن نستذكره من الحديث القرآني عن البحر أنه يشير إلى احتواء البحر في ظاهره وباطنه كثيراً من الأشياء ، ولذلك يجعله عديلاً للبر ، فيقول في سورة الأنعام : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ( الأنعام ٥٩ ) . قال أهل التفسير : وإما ذكر الله علمه بما في البحر ، لأن البحر يحوى أشياء غريبة وعجيبة ، عرف الإنسان منها جوانب ، وبقيت منها جوانب ما زالت من الغيب يعلمها الله .

وعدّ القرآن ركوبَ الإنسان البحر ، وسيطرته على بعض قواه ، لونا من ألوان التكريم الإلهي للإنسان ، فقال في سورة الإسراء : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » ( الآية ٧٠ ) . ويذكرنا القرآن بهذه النعمة ، لنقدها ونشكرها ونعتبرها فقال : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » .

وكان كتاب الله قد أراد أن يشير أمامنا إشارات موجزة معجزة إلى أنواع هذه النعمة ، فقال في سورة إبراهيم : « وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ » ( الآية ٣٢ ) . وقال في سورة الإسراء : « رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيماً » ( الآية ٦٦ ) . وقال في سورة لقمان : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نِعْمَةً لِّئِيَّاكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ، إِنَّ ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » ( الآية ٣١ ) .

وحينا قال في سورة البقرة : « وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » ( الآية ١٦٤ ) . كأنه أراد - وهو أعلم بمراده - التذكير بالسفن التي تسير بسرعة بقوة الهواء أو البخار أو غيره ، لتحقيق ألوان من المنافع للناس في أسفارهم وتجاراتهم ، وقد صارت البواخر من الضخامة بحيث تعد

الباخرة الضخمة كأنها مدينة تتحرك فوق سطح البحر ، ففيها جميع المرافق التي تتمتع بها الناس . من غرف وسرر ورثك وحمامات وملاعب وسينما ومسارح ومطابع ، وغير ذلك .

والله جل جلاله هو الذي خلق النواميس التي تسمح بجريان السفن في البحر ، وعلم الله الإنسان كيف يهتدى إلى هذه النواميس ليسخرها لمصلحته ، وينتفع بها هذا الانتفاع الضخم . ولو اختلفت طبيعة البحار أو طبيعة السفن ، أو اختلفت مدارك الإنسان ، ما كان شيء من هذا الذي كان ، ولا شك أن هذا النظام البديع من فضل الله ورحمته ولطفه بعباد ، فلا غرابة إذن حين يقول في سورة الحج : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » ( الآيَة ٦٥ ) .

وما دام الأمر كذلك فمن حق القرآن أن يتخذ من ذلك الإبداع الرباني دليلاً على وجود الله وربوبيته وألوهيته وعظمته ، وإذا كان القرآن قد حدثنا في سورة البقرة عن آيات الله في السموات والأرض ومنها « الْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » فقد قال قبلها مباشرة : « وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَكَانَ هَذَا حُكْمًا وَمَعَهُ الْبُرْهَانُ وَالذَّلِيلُ ، فالبحر بما فيه من نعم دليل ناطق وشاهد صادق على ألوهية الله ورحمته الواسعة .

والإمام المفسر فخر الدين الرازي المتوفى سنة ست وستائة للهجرة ، أي منذ قرابة ثمانمائة سنة يتحدث عن الاستدلال على وجود الله تعالى عن طريق جريان السفن في البحار ، فيقول :

« المسألة الرابعة : في كيفية الاستدلال بجريان الفلك في البحر على

وجود الصانع تعالى وتقدّس ، وهى من وجوه .

أحدها : أن السفن وإن كانت من تركيب الناس ، إلا أنه تعالى هو الذى خلق الآلات التى بها يمكن تركيب هذه السفن ، فلولا خلقه لها لما أمكن ذلك .

وثانيها : لولا الرياح المعينة على تحريكها لما تكامل النفع بها .

وثالثها : لولا هذه الرياح وعدم عصفها لما بقيت ولا سلمت .

ورابعها : لولا تقوية قلوب من يركب هذه السفن لما تم الغرض ، فصيرها الله تعالى من هذه الوجوه مصلحة للعباد ، وطريقاً للمنافعهم وتجاراتهم .

وخامسها : أنه خص كل طرف من أطراف العالم بشيء معين ، وأحوج الكل إلى الكل ، فصار ذلك داعياً يدعوهم إلى اقتحام هذه الأخطار فى هذه الأسفار ، ولولا أنه تعالى خص كل طرف بشيء وأحوج الكل إليه ، لما ركبوا هذه السفن ، فالحامل ينتفع به لأنه يربح ، والمحمول إليه ينتفع بما حُمّل إليه .

سادسها : تسخير الله البحر لحمل الفلك ، مع قوة سلطان البحر إذا هاج ، وعظم الهول فيه ، إذا أرسل الله الرياح فاضطربت أمواجه ، وتقلبت مياهه .

وسابعها : أن الأودية العظام مثل جيحون وسيحون تنصب أبداً إلى بحيرة خوارزم على صفرها ، ثم إن بحيرة خوارزم لا تزداد البتة ولا تمتد ، فالحق سبحانه وتعالى هو العالم بكيفية حال هذه المياه العظيمة التى تنصب فيها .

وثامنها : ما فى البحار من الحيوانات العظيمة ، ثم إن الله تعالى يخلص السفن منها ، ويوصلها إلى سواحل السلامة .

وتاسعها : ما فى البحار من هذا الأمر العجيب ، وهو قوله تعالى :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) وقال : ( هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ ، وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ ) . ثم إنه تعالى بقدرته يحفظ البعض عن الاختلاط ببعض ، وكل ذلك مما يرشد العقول والألباب إلى افتقارها إلى مدير يديرها ومقدر يحفظها .

ولتذكر أن هذا كلام قد قاله الرازي منذ قرابة ثمانمائة سنة :

° ° °

ولم يستقص القرآن ألوان المنافع والخيرات المستمدة من البحر ، لأنه كتاب إيجاز ، ومع ذلك أشار إلى الأسماك واللحوم البحرية وما يستخرج من البحر من جواهر ، فقال في سورة النحل : « وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ ، وَلْيَنْتَفِعُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ( الآية ١٤ ) . وقال في سورة المائدة : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ . . . » ( الآية ٩٦ ) .

وليس صيد البحر مقصوراً على الأسماك التي تبلغ عشرات من الأنواع ، ولكن هناك أيضاً النباتات البحرية ، وما أكثرها ، وفي مطلع هذا القرن العشرين قام رئيس « مجمع تقدم العلم الإنجليزي » بإحصاء بين فيه أن الأرض لا تبلغ سنة ١٩٢٨ م حتى نقل المواد الغذائية البرية لكثرة التناسل بين البشر ، وذكر أن في قاع البحار وعلى شواطئها وسواحلها أصنافاً من النباتات البحرية لا تقل القيمة الغذائية فيها عما في أفضل النباتات البرية ، وذكر أسماء عدة أصناف منها تكثر في المحيط الأطلانطي عند شواطئها الغربية ، وقال إن في سواحل مقاطعة سرقوسة وحدها من النباتات البحرية ما لو أحسن استخراجها ومعالجته لكفى لتغذية سكان أوربا كلها طول السنة ، ولكنها متروقة للطبيعة ، فكيف لو أحصينا ما في البحار الأخرى ، ذاكرين أن مساحة

هذه البحار أكثر من ضعفي مساحة اليابس ؟ . ويراجع تفصيل الحديث عن ذلك في كتابي « صلوات على الشاطي » ومجلة الهلال في أكتوبر ١٩٤٨ م .  
وليس الاعتناء بالأعشاب البحرية بدعاً عند الناس ، فبعض الأمم تغتذى بها كما في اليابان والصين وجزائر المحيط ، وقد مرت عليهم دهور ولا غذاء لهم سواها ، وفي النباتات البحرية ما في النباتات البرية من مواد الغذاء اللازمة للجسم ، فلم لا يلتفت العالم إليها للانتفاع بها ؟

• • •

وإذا كانت البحار بسعتها وخيراتها ووسائل الانتفاع بها تعد مظهراً رائعاً من مظاهر قدرة الله جل جلاله ، فإن القرآن الكريم قد جعلها من جانب آخر محكاً ومختبراً للإيمان عند الإنسان ، فهذا البحر الهادئ اللين الحلو الجميل ، الذي يلجأ إليه الناس متمتعين بالسباحة فيه ، وشم هوائه ، والارتياح إلى جوه وسمائه وزرقة مائه ، هو هو البحر المخيف المرعب المزمجر أحياناً . ليكون اختباراً وابتلاء ، وتذكيراً بأن المنقذ هو الله ، وأن المنعم على من يستحق النعمة ، هو المنتقم ممن يستحق الانتقام .

ونحن قد قرأنا قول الله تعالى في سورة يونس : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهَم بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ ، وَفَرِحْتُمْ بِهَا ، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لَئِن أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَاهُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (الآيات ٢٢ ، ٢٣) .

وفي سورة لقمان جاء قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ، وَإِذَا سَبَّهْتُمْ مَوْجُ كَالظَّلْمَلِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُ مُقْتَصِدٌ ، وَمَا يَحْتَدُّ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ « (الآياتان ٣١ ، ٣٢) .

وفي سورة الشورى جاء قوله عز من قائل : « وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، إِنَّ يَسَاءَ يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ، أَوْ يُوقِنُهَا بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ « (الآيات ٣٢ - ٣٤) .

والبحر الذي يضرب مثلاً للصفاء والنقاء وطيب الهواء في كثير من الأحيان ، هو نفسه البحر الذي يكمه فيكون فيه ظلام وظلمات ، وأهوال من اللجج الثائرة والأمواج الهائجة . ولذلك حدثنا القرآن ، فقال في سورة الأنعام : « قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ » (الآياتان ٦٣ ، ٦٤) .

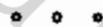
ويقول في سورة النور : « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » (الآية ٤٠) .

ويقول في سورة النمل : « أَمْ مِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (الآية ٦٣) .

والبحر الذي يلطف عنده الجو ، ويرق على شاطئه النسيم ، ويتخذة الناس بسببه لذت وريح عن الشمس ، واستعادة النشاط ، وتقوية الصحة وتحور حركته ، هو نفسه الذي يطوى بين أحشائه الواسعة الكثير من العرق

والضحايا ، ولم يفت القرآن المجيد أن يشير إلى ذلك ، فحدثنا عن إغراقه فرعون وقومه الكافرين في البحر ، فقال في سورة البقرة : « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » ( الآية ٥٠ ) .

والبحر الذي أغرق فرعون وقومه بقدره الله ، هو البحر الذي صان الرضيع « موسى » نبي الله بإذن الله ، ألم يقل القرآن في سورة القصص : « وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » ( الآية ٧ ) . ثم يقول : « فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ( الآية ١٣ ) .



والقرآن الكريم . عن طريق حديثه عن البحر بحثنا على ندرات الفلكية وبحوث الفضاء والسماء ، ويشير إلى التوسع في هذه الدراسات ، حيث يقول في سورة الأنعام : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » ( الآية ٩٧ ) . وما أدق الرمز والإشارة هنا حين يذكر التفصيل : « قد فصلنا ، وحين يذكر العلم : « لقوم يعلمون » .

وقد يؤكد هذا الفهم أن القرآن المجيد ضرب « البحر » مثلا في السعة والكثرة ، فقال في سورة الكهف : « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » ( الآية ١٠٩ ) . وكان القرآن المجيد يريد - عن طريق حديثه عن البحر - أن نتعلم التمييز بين الحلو والمر ، أو بين العذب والملح ، وأن نتعود الفصل بين الأشياء

المتغايرة ، وأن نستعمل كل شيء في مكانه ووظيفته ، دون أن يطغى جانب على جانب ، ولذلك يقول في سورة الفرقان : « وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً » (الآية ٥٣) . أى هيا الله جل جلاله البحر المالح الشديد الملوحة وأجراه ، كما هيا النهر العذب الظاهر العذوبة وأجراه ، وجعلهما بتدانيان يلتقيان ، دون أن يغلب أحدهما الآخر . أو دون أن يفنى أحدهما في الآخر ، بل أقام بينهما من طبيعتهما التي فطرهما الله عليها ، حاجزاً يمنع كلا منهما أن يطغى على الآخر ، فالأنهار تجري - غالباً - في مستوى أعلى من مستوى البحار ، ولذلك يصب الماء العذب في ماء البحر المالح ، ولا يقع العكس إلا نادراً . وعاد القرآن فأكد هذه الصور من مظاهر قدرة الله ، فقال في سورة الرحمن :

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ، فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبُّكُمَا تَكْذِبَانِ » (الآيات من ١٩ - ٢١) .

وكما تلتقي البحار والأنهار ، فلا يبغي أحدهما على الآخر ، لأن الله « جعل بين الاثنين حاجزاً » نرى البحرين يلتقيان أيضاً . فلا يطغى أحدهما ولا يبغي على الآخر ، وقد حدثنا القرآن عن « مجمع البحرين » . ويراد بمجمع البحرين منطقة التقاء بحر الروم و بحر القلزم ، وهما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . يقول القرآن في سورة الكهف : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ، فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا » . (الآيات ٦٠ ، ٦١) .



وكان الله جل جلاله قد جعل مساحة البحار - بالمعنى العام الذي يشمل

المحيطات والبحيرات ونحوها - أوسع من مساحة اليابسة ، وأوسع وأوسع من مساحة المعمور من هذه اليابسة ، لكي يكون في البحار متسع يخفف حدة الطمع عند الإنسان الذي يتصارع أبناؤه أشدَّ الصراع على خيرات الأرض وطاقاتها ، ولذلك يحسن الإنسان العادى حين ينزل البحر سابحاً ، أو يجلس إليه مستروحاً ، أن مساحة البحر أقرب إلى روح المساواة من مساحة الأرض ، وتعجبني هنا عبارة للمرحوم الرافعى يخاطب بها البحر حول ما يقرب من هذا المعنى فيقول له :

« أيها البحر ، قد ملائتك قوة الله لتثبت فراغ الأرض لأهل الأرض . ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطان لهذا الإنسان المغرور ؛ وتجيش بالناس وبالسفن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشاً ترمى به .

والاختراع الإنساني - مهما عظم - لا يغني الإنسانَ فيك عن إيمانه ، وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظمة والهول ، رداً على عظمة الإنسان وهوله في الربع الباقي . ما أعظم الإنسان وأصغره !

ينزل الناس في مائك فيتساوون حتى لا يختلف ظاهر عن ظاهر ، ويركبون ظهرك في السفن ، فيحن بعضهم إلى بعض ، حتى لا يختلف باطن عن باطن . تشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضية ومن أحكامها الباطلة ، وتفقرهم إلى الحب والصدقة فقرأ يريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء إذ عرفوها في الأرض .

يا سحر الخوف ، أنت أنت في اللجة كما أنت أنت في جهنم !  
وإذا ركبتك الملحد أيها البحر ، فرجفت من تحته ، وهدرت عليه ،  
وثررت به ، وأريته رأى العين كأنه بين سماءين مستنطق إحداهما على الأخرى

فتفعلان عليه ، تركته يتطأطأ ويتواضع ، كأنك تهزه وتهز أفكاره معاً ،  
وتدحرجه وتدحرجها ، وأطرت كل ما في عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل ،  
وكشفت له عن الحقيقة : أن نسيان الله ليس عمل العقل ، ولكنه عمل  
العقل والأمن وطول السلامة .

• • •

والعقل الشرى عقل ضعة وثاب ، ولذلك لا يبعد في مجال كمجالنا  
هذا أن يسأل سائل فيقول : وماذا خلق الله البحر ؟ . ومن العجيب أنني  
أكتب هذا الفصل في يوم من صيف عام ١٩٧٢ ، وفي صيف عام ١٩٤٦ م  
أى منذ قرابة ربع قرن - نشرت كتابي « صلوات على الشاطئ » . وجعلت  
فيه فصلاً عنوانه : « لماذا خلق الله البحر » استغرق أكثر من عشر صفحات ،  
ولا أحب أن أعيد هنا كلاماً قلته ونشرته في ذلك العهد البعيد ، ولكي أكني  
هنا بإيراد ما قاله الإمام ابن القيم في كتابه « زاد المعاد » إجابة عن هذا السؤال .  
قال : « وقد جعل الله البحر ملحاً أجاباً ، مراً زعاقاً ، لتأم مصالح من هو  
على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، فإنه دائم راكم كثير الحيوان ، وهو  
يموت فيه كثيراً ولا يُقبر ، فلو كان حلواً لأنن من إقامته وموت حيوانه فيه  
وأحاف ، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك وينتن ويجيف فيفسد  
نعالم .

فاقتضت حكمة الرب سبحانه وتعالى أن يجعله كالملاحة التي لو ألقى  
فيها جيف العالم كلها وأنتاه وأمواته لم تغيره شيئاً ، ولا يتغير على مكثه من  
حين خلق ، وإلى أن يطوى الله العالم . فهذا هو السبب الغائي الموجب للملوحته ،  
وأما الفاعل فكون أرضه سبخة مالحة .

ولكن ... إذا كانت منافع البحر كثيرة وخيراته لا تحصى ، فهل استقام الإنسان في الانتفاع بهذه المنافع والخيرات ؟ وهل تعامل مع البحر معاملة القويم الأمين ؟ . الواقع ينادى بخلاف ذلك ، فالإنسان المعاصر قد امتد بتنافسه وصراعه إلى البحار وشواطئها ، وتبارت الدول والأمم في السيطرة على البحار وحشدها بآلات القتال والدمار ، من مدمرات ونسافات وبوارج وحوامل طائرات ... إلخ

ولم يقتصر الأمر في التنكر لمنافع البحر وخيراته على هذا اللون من الانحراف أو الاعتساف ، بل كان هناك انحراف آخر في الانتفاع بالبحر ، وهذا الانحراف يتمثل من كثير من الناس في ذلك الفجور الذي يأتونه على شواطئ البحار ، دون تقييد بقيود للفضيلة أو العفة أو الوقار .

ومن أعنف ما قرأت في تصوير هذا الفجور عبارة أجراها الرافعي على لسان الشيطان ، وهو يصور ما يجري في أحد الشواطئ ، وكان ذلك في الثلاثينيات من هذا القرن .

« هنا على رغم الآداب مملكة للصيف والقيظ ، سلطانها الجسم المؤنث العاري ، أجسامٌ تعرض مفاتها عرض البضائع ، فالشاطئ حانوت للزواج . وأجسام تعرض أوضاعها كأنها في غرفة نومها لا في الشاطئ ، وأجسام جالسة لغيرها ، تحيط بها معانيها ملتزمة معانيه ، فالشاطئ سوق للرقيق ، وأجسام خفرة جالسة للشمس والهواء ، فالشاطئ كدار الكفر لمن أكره ، وأجسام عليلة تقتحمها الأعين فتزدرئها ، لأنها جعلت الشاطئ مستشفي ، وأجسام خليعة ، أضافت من « استانلي » وأخواتها - إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية - مزبلة الإسكندرية .

كان جدال المسلمين في السفور ، فأصبح الآن في العرى ، فإذا تطور

فماذا يتق من جدال أوربا ، إلا الجدال في شرعية جمع المرأة بين الزوج وشبه الزوج !

كان ذلك الكلام في الثلاثينات ، فماذا يقول صاحبه لو عاد إلى القول اليوم ؟ ألا يذكرنا هذا من قرب أو من بعد ، يقول الحق جل جلاله :  
 « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » ؟ ( الروم ٤١ ) .

ليت كل إنسان عاقل يحسن التدبر والتفكر في قول الله جل جلاله :  
 « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » ( الإسراء الآية ٧٠ ) .